

التحفة العراقية في أعمال القلوب

تأليف

شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم
ابن تيمية الحراني الدمشقي
المتوفى ٧٢٨ هـ

وضع حواشيه
عبد الجليل عبد السلام

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان



التحفة العراقية

في أعمال القلوب

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun-ilmiyah.com

الكتاب: التحفة العراقية في أعمال القلوب

AT-TUHFAH AL-ᶜIRĀQIYAH
FĪ AᶜMĀL AL-QULŪB

المؤلف: تقي الدين ابن تيمية

المحقق: عبد الجليل عبد السلام

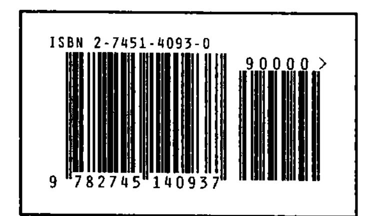
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 104

سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى



ISBN 2-7451-4093-0

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

نسبه:

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين شيخ الإسلام.

مولده:

كان مولده في «حران الجزيرة» بينها وبين الرقة من مدن شمال سوريا يومان سنة (٦٦١ هـ) في اليوم العاشر من ربيع الأول.

سيرته:

قدم إلى دمشق صغيراً مع أبيه شهاب الدين طلباً للعلم، فنبغ في علوم كثيرة، وقل أن سمع شيئاً إلا حفظه، فصار إماماً في التفسير وعلومه، أعرَف بالمذاهب الفقهية من أصحابها الذين عاصروه، وبرع في الوقوف على اختلاف العلماء، وجمع أقوالهم، والتحرير فيها، والنظر في أدلتها، وبيان الراجح منها، عالماً بالأصول والفروع، والنحو واللغة، والعقائد والفرق.

لقد اجتمعت لابن تيمية صفات حميدة، اعترف له بها جهابذة العلم والفضل ممن عاصروه، أو جاؤوا بعده، فقد عُرف بالذكاء والنباهة والحفظ منذ الصغر، حتى أصبح إماماً قبل بلوغ الثلاثين من عمره. وما تكلم معه عالم في فن إلا ظن أن ذلك الفن لا يجيد غيره، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان داعية إصلاح في الدين، عمل على رد شبهات المغرضين والمبتدعين، فقد ناظر العديد منهم، وكان مؤيداً من الله تعالى، قوله من الكتاب والسنة ومنهج الأئمة، عاش - رحمه الله تعالى - بعلمه مع واقعه وعصره، فترجم علمه إلى عملٍ دائبٍ دائم، وتعداه إلى جهاد في سبيل الله.

وبالإضافة إلى علمه، وزهده، وورعه، فقد كان شجاعاً، مقداماً، لا

يخشى في اللّه لومة لائم، يقف في وجه الظلم أيّاً كان صاحبه، وحامل لوائه نصرة للحق، همه الأوحد نصرة هذا الدين والذود عنه، لأجل ذلك ذاق ألواناً عديدة من العذاب، والكيد، والسجن، والتشريد، فقد عمل خصومه على النيل منه، ودبروا له المكائد؛ حتى قصد مصر، فتعصب عليه جماعة من أهلها، فسجن بها مدة، ونقل إلى الإسكندرية، ثم أُطلق فسافر إلى دمشق، واعتقل بها سنة (٧٢٠ هـ)، وأُطلق ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق.

شيوخه:

أخذ - رحمه اللّه - العلم عن شيوخ أفاضل منهم:

الشيخ ابن عبد الدائم، والقاسم الاربلي، والمسلم بن علان، وابن أبي اليسر، وابن عبدان، والشيخ شمس الدين الحنبلي، والشيخ شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن العيرفي، ومجد الدين ابن عساكر، والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب بن المقداد، وابن أبي الخير، والكمال عبد الرحيم، وابن شيبان، والشرف بن القواس، وخلق كثير. والتقى بابن دقيق العيد، واعترف له بالفضل.

تلاميذه:

تلاميذ ابن تيمية من الكثرة بحيث لا يحصون ولا يعدون، في بلاد الشام ومصر وفلسطين، وسوف نقتصر في هذه الترجمة السريعة على ذكر أشهر تلاميذه وهم:

شمس الدين، أبو عبد اللّه، محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف: بابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف العديدة، والعلوم المفيدة منها: «مدارج السالكين»، و«زاد المعاد»، المتوفى سنة (٧٥١هـ)، والحافظ شمس الدين، أبو عبد اللّه، محمد بن أحمد، ابن عبد الهادي المقدسي، صاحب: «الصارم المنكي في الرد على السبكي»، وكتاب «العمدة في الحفاظ» والمتوفَّى سنة (٧٤٤هـ)، وعماد الدين، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء، المعروف بابن كثير، صاحب: «التفسير»، و«البداية والنهاية»، المتوفَّى سنة (٧٧٤هـ).

ومنهم: الحافظ الذهبي، مفيد الشام، ومؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، وإمام أهل الجرح والتعديل، شمس الدين، أبو عبد الله محمد، ابن أحمد بن عثمان، التركماني، صاحب: «تاريخ الإسلام»، و«سير أعلام النبلاء»، و«ميزان الاعتدال»، المتوفَّى سنة (٧٤٨هـ).

ومنهم أيضاً: ابن الوردي، وزين الدين، أبو حفص عمر الحراني، وشمس الدين، أبو عبد الله محمد بن مفلح، وغيرهم.

العصر الذي عاش فيه المؤلف:

إن عصر ابن تيمية كان عصراً كثرت فيه البدع والخرافات، وتفشت الباطنية، وانتشر الجهل والتعصب والتقليد، وتعرضت فيه بلاد المسلمين إلى الهجمات الحاقدة على المسلمين من قبل التتار والصليبيين.

ونلمس ذلك من خلال ما وصل إلينا من مؤلفاته - رحمه الله تعالى -، والتي تتلخص في الجوانب التالية:

١- فقد صنف في أهل البدع والاعتقادات الفاسدة، في الرد عليها، وكشف زيفها وانحرافها.

٢- صنف في الرد على الفلاسفة، وأهل الكلام، والإلحاد والجدل.

٣- مواقفه المحمودة من الرافضة على اختلاف فرقهم ومشاربهم.

٤- الدعوة إلى العودة بالمسلمين إلى الأصول الثابتة من الكتاب والسنة إذ كان عصر ابن تيمية عصر أحداث عظام في الهجمات الحاقدة على الإسلام من الخارج، والتخبطات والانحرافات في العقائد، والمذاهب التي مزَّقت الأمة من الداخل.

مكانته عند العلماء:

لقد شهد لابن تيمية جمع غفير من علماء الأمة، سواء من المعاصرين له، أو من الذين جاؤوا بعده نذكر منهم:

ابن سيد الناس يقول فيه: (ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى

في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه، أو حاضر في الملل والنحل لم تر أوسع من غلته في ذلك).

وابن دقيق العيد، يقول: (لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً، العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد).

وابن الوردي، يقول: (حضرت مجالس ابن تيمية فإذا هو بيت القصيدة، وأول الخريدة - اللؤلؤة قبل ثقبها - علماء زمانه فلك هو قطبه، وجسم هو يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر، قال ينشده:

إن ابـــن تـــيـــمـــيـــه فـــي كـــل الـــعـــلـــوم واحـــد
أحـــيـــيـــت ديـــن أحـــمـــد وشـــرعـــه يـــا أحـــمـــد

ابن قيم الجوزية، قال في ترجمته لابن تيمية: (شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق، ونصرة الدين، الداعي إلى الله ورسوله، المجاهد في سبيله).

الحافظ الذهبي، قال فيه: (شيخ الإسلام مفتي الفرق، قدوة الأمة، أعجوبة الزمان، بحر العلوم، حبر القرآن، تقي الدين، سيد العباد، أبي العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية - رضي الله عنه -).

الحافظ المزي، قال فيه: (ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه).

وغيرهم ممن ذكروا فضله وعلمه وورعه وزهده...

تصانيفه:

أما تصانيفه ففي: «الدرر الكامنة» لابن حجر، ذكر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي: «الوفيات» أنها تبلغ ثلاثمائة مجلد منها:

«السياسة الشرعية»، «الفتاوى الكبرى» في خمس مجلدات، «الإيمان»، «منهاج السنة»، «درء تعارض العقل والنقل»، «الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، «الواسطة بين الحق والخلق»، «التوسل والوسيلة»، «الصارم

المسلول»، «اقتضاء الصراط المستقيم»، «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، «الرد على المنطقيين»، «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية». وغيرها من الكتب والرسائل القيمة.

وقد جمع الشيخ ابن عروة الحنبلي الكثير من مؤلفات الشيخ الإمام في كتابه «الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري»..

وفاته:

تُوفِّيَ ابن تيمية في قلعة دمشق، بالقاعة التي كان محبوساً بها، وخرجت دمشق تشيعه إلى مقبرة الصوفية، فدُفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله - رحمهما الله -، وكانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين خلت من ذي العقدة سنة ٧٢٨هـ.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه أثق

أما بعد: فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب - التي قد تسمى «المقامات والأحوال» - وهي من أصول الإيمان. وقواعد الدين؛ مثل محبة اللّه ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.

اقتضى ذلك بعضُ من أوجب اللهُ حقه من أهل الإيمان، واستكتبها وكلٌّ منا عجلان .

وجوب الأعمال على جميع خلقه

فأقول: هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق -المأمورين في الأصل- باتفاق أئمة الدين، والناسُ فيها على «ثلاث درجات» كما هم في أعمال الأبدان على «ثلاث درجات»: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محظور.

والمقتصد: المؤدي الواجبات والتارك المحرمات.

والسابق بالخيرات: المتقربُ بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحبّ، والتاركُ للمحرم والمكروه. وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تُمحى عنه: إما بتوبة - والله يحب التوابين ويحب المتطهرين- وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك.

وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله، فإن أولياء الله هم الذين ذكرهم في كتابه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. فحدُّ أولياء الله: هم المؤمنون المتقون، ولكن ذلك ينقسم: إلى «عامّ»، وهم المقتصدون و«خاص» وهم السابقون، وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصدِّيقين.

وقد ذكر النبي ﷺ «القسمين» في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه: فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي؛ ولئن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان: فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد قد تجتمع فيه الحسناتُ المقتضية للثواب، والسيئاتُ المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأئمة الإسلام، وأهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنه لا يَخْلُد في النار من في قلبه مثقالُ ذرة من إيمان.

وأما القائلون بالتخليد: كالخوارج و المعتزلة القائلين إنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وأنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره في أهل الكبائر، لا قبل دخول النار ولا بعده، فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثوابٌ وعقاب، وحسنات وسيئات، بل من أُثيب لا يعاقب، ومن عوقب لم يُثَبْ، ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة كثير ليس هذا هو موضعه، وقد بسطناه في مواضعه.

وينبني على هذا أمور كثيرة، ولهذا من كان معه إيمان حقيقي فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه، وإن كان له ذنوب، كما روى البخاري في صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن رجلاً كان يُسمّى حماراً، وكان يُضحك النبي ﷺ، وكان يشرب الخمر، ويجلده النَّبيُّ ﷺ، فأتي به مرة، فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنْه فإنه يحب الله ورسوله»[1].

فهذا يبيّن أن المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله، وحبُّ الله ورسوله أوثق عرى الإيمان.

كما أن العابد الزاهد قد يكون لما في قلبه من بدعة ونفاق مسخوطاً عليه عند الله ورسوله من ذلك الوجه، كما استفاض في الصحاح وغيرها من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري وغيرهما، عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر الخوارج فقال: «يحقر أحدُكم صلاته مع

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٦٧٨٠).

صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يَمْرُقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة، لئن أدركتُهم لأقتلّنهم قتل عاد»(١).

وهؤلاء قاتلهم أصحاب رسول الله ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بأمر النّبي ﷺ. وقال النبي ﷺ فيهم في الحديث الصحيح: «تَمْرُق مارقةٌ على حين فرقة من المسلمين، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق»(٢).

ولهذا قال أئمة الإسلام كَسُفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها.

ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها: إن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيّء ليتوب منه، أو بأنه تَرَكَ حسناً مأموراً به أمر إيجاب، أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب.

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويُرشده حتى يتبين له الحقُّ، كما هدى سبحانه وتعالى مَنْ هدى من الكفار والمنافقين وطوائفَ من أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه، فمن عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢٨﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الإيمان، باب إثم من راءى بقراءة القرآن (٥٠٥٧) ومسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج (١٠٦٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٥).

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة.

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه، فإن ذلك يورثه الجهلَ والضلال، حتى يَعمى قلبه عن الحق الواضح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠]. وهذا استفهام نفي وإنكار أي: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأنّا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة. على قراءة من قرأ (إنها) بالكسر تكون جزماً بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة؛ ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير: إن من ثواب الحسنة الحسنةَ بعدها، وإن من عقوبة السيئة: السيئةَ بعدها.

وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق! فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً. وإياكم والكذبَ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١]. فأخبر النبي ﷺ أن الصدق أصل يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله (٦٠٩٤) ومسلم، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق (٢٦٠٧) والترمذي، كتاب البر والصلة، باب في الصدق والكذب (١٩٧١).

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]. ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة، وأحب أن لا يُنفّره ولا يَشْعَبَ قلبه أمره بالصدق. ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكرُ الصدق والإخلاص، حتى يقولون: قل لمن لا يصدق: لا يتبعْني. ويقولون: الصدق سيف الله في الأرض، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويقول يوسف بن أسباط وغيره: ما صدق الله عبدٌ إلا صَنَعَ له وأمثال هذا كثير.

والصدق والإخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المُظهرِين للإسلامَ ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق. فإن أساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب، ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نَعتَه بالصدق، كما في قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٤-١٥]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانَهم رِيبةٌ، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١] قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئنْ بُعث محمد وهو حي ليؤمنَنّ به ولينصرنَه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرُنّه.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]. فذكر سبحانه أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم اللهُ من ينصره ورسلَه. ولهذا كان قِوام الدين: بكتاب يهدي، وسيف ينصر ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخرة، حيث نزل الكتاب من الله، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢]، وقال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦]، والحديدُ أُنزل من الجبال التي خُلق فيها.

وكذلك وَصَفَ الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٧]. ونحوُ ذلك من القرآن كثير.

ومما ينبغي أن يُعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: «كُتب

على ابن آدم حظُّه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان تَزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البَطْش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفَرْجُ يصدق ذلك أو يكذبه»[١]. ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة إذا كانت إرادتُهم للقتالَ ثابتة جازمة، ويقال: فلان صادق الحب والمودة، ونحو ذلك. ولهذا يريدون بالصادق؛ الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله، ويريدون الصادقَ في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذباً في خبره، أو كاذباً في عمله كالمرائي في عمله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣].

وأما الإخلاص لله فهو حقيقة الإسلام إذ «الإسلام»: هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

فمن لم يستسلم لله فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكلٌّ من الكِبر والشرك ضد الإسلام، والإسلامُ ضد الشرك والكبر. ويستعمل لازماً ومتعدياً كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، وأمثال ذلك في القرآن كثير.

ولهذا كان رأس الإسلام «شهادة أن لا إله إلا الله» وهي متضمنة عبادةَ الله وحده وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج (٦٢٤٣)، ومسلم، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا (٢٦٥٧)، وأبو داود، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر (٢١٥٢)، وأحمد (٧٦٦٢).

وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٨- ١٩].

وهذا الذي ذكرناه مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها. كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»[١].

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ: «الحلال بَيِّنٌ والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحَت صلح لها سائر الجسد، وإذا فَسَدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[٢].

وعن أبي هريرة قال: القلب مَلِك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خَبُث الملك خبثت جنوده [٣].

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه ونحو ذلك، كلُّها مأمورٌ بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محموداً في حال أحد، وإن ارتقى مقامه.

وأما «الحزن» فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلّق بأمرُ الدين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٩٧٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢/ ١٩٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٣٣ (١٠٩).

مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥]، وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وأمثال ذلك كثير.

وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم! لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم، كما يحزن على المصائب، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا يؤاخذ على دمع العين، ولا حزن القلب، ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم، وأشار بيده إلى لسانه»[1].

وقال ﷺ: «تَدمَع العينُ ويَحزن القلب - ولا نقول إلا ما يُرضي الرب»[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه، ويُحمد عليه فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموماً، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير، وبُغض الشر، وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة، ودفع مضرة، نُهي عنه، وإلا كان حسْبُ صاحبه رفعَ الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب، واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به، كان مذموماً عليه من تلك الجهة، وإن كان محموداً من جهة أخرى.

وأما المحبةُ لله، والتوكلُ عليه، والإخلاص له، ونحو ذلك فهذه كلها خيرٌ محض، وهي حسنة محبوبة في حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض (١٣٠٤)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي إنا بك لمحزونون (١٣٠٣) ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان والبنات (٢٣١٥)، وأبو داود، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٣١٢٦)، وأحمد (١٢٦٠٢).

والصالحين، ومن قال: إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك، إن أراد خروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق. وقد تكلم بعضهم في ذلك بكلام بيّنا غلطه فيه، وأنه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه.

ولكن هذه «المقامات» ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم، فللخاصة خاصُّها، وللعامة عامُّها. مثال ذلك أن هؤلاء قالوا: «إن التوكل مناضلةٌ عن النفس في طلب القُوت، والخاص لا يناضل عن نفسه.

وقالوا المتوكلُ يطلب بتوكله أمراً من الأمور، والعارفُ شهد الأمور مفروغاً منها فلا يطلب شيئاً».

فيقال: أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا، فإن المتوكل يتوكل على الله سبحانه في صلاح قلبه ودينه، وحفظ لسانه وإرادته، وهذا لأهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربَّه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وقوله ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع، لأن هذين يجمعان الدين كله، ولهذا قال من قال من السلف: إن الله جمع الكتبَ المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصَّل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد، كما في الحديث الذي في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله سبحانه: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ نصفُها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، قال رسول الله ﷺ: يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثنى عليّ عبدي، يقول العبد: مالك يوم الدين، يقول الله: مَجَّدني عبدي، يقول العبد: إياك

نعبد وإياك نستعين، يقول الله: فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»(١).

فالرب سبحانه له نصفُ الثناء والخير، والعبد له نصف الدعاء والطلب، وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد. فإياك نعبد للرب، وإياك نستعين للعبد.

وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديفاً للنبي ﷺ على حمار فقال: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقُّ الله على العباد أن يعبدون ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم»(٢).

والعبادة: هي الغاية التي خَلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبها أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمالَ الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايتَه، فالحبُّ الخَلِيُّ عن ذلٍّ، والذلُّ الخليُّ عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما تجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد -والله غني عن العالمين- فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها، ولهذا كان الله أشدَّ فرحاً بتوبة العبد الفاقد لراحلته، عليها طعامُه وشرابه، في أرضٍ دَوِّيَّةٍ مُهلكة إذا نام آيساً منها، ثم

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الفاتحة (٢٩٥٣) والنسائي، كتاب الافتتاح، باب ترك قراءة فاتحة الكتاب (٩٠٩)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٩٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠)، والترمذي، كتاب الإيمان، باب افتراق هذه الأمة (٢٦٤٣)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٦). وأحمد (٢١٥٠١).

استيقظ فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته[١]. وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع.

والتوكل والاستعانة للعبد، لأنه هو الوسيلة والطريق الذي يَنال به مقصودَه ومطلوبه من العبادة. فالاستعانة كالدعاء والمسألة.

وقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: يا بن آدم! إنما هي أربع: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي. فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي هي لك فعملك أجازيك به أحوجَ ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين خلقي فأتِ للناس ما تحب أن يأتوا إليك»[٢].

وكونُ هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداءً، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائماً له، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك، وإلا فكلُّ مأمورٍ به فمنفعته عائدة على العبد، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه، وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة؛ ظنَّ أن التوكل لا يُطلب به إلا حظوظُ الدنيا. وهو غلط بل التوكل في الأمور الدينية أعظم.

وأيضاً الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات أو المستحبات إلا بها هي من الدين، والزاهد فيها زاهدٌ فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه.

و«الزهد المشروع» هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فُضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أن «الورع المشروع» هو ترك ما قد يَضُرُّ في الدار الآخرة، وهو: ترك المحرمات والشبهات التي لا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب الحض على التوبة (٢٧٤٤)، وأحمد (١٧٩٥٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٤، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٥١٨ (١١١٨٦)، والطبراني في الدعاء ص٢٧ (١٦).

يسلتزم تركُها تَرْكَ ما فعلهُ أرجحُ منها، كالواجبات، وأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يُعين على ما ينفع في الدار الآخرة، فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبهُ داخل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧] كما أن الاشتغال بفضول المباحات، هو ضد الزهد المشروع، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل بها محرماً كان عاصياً، وإلا كان منقوصاً عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين.

وأيضاً فإن التوكل هو محبوب لله مَرْضيٌّ له مأمور به دائماً، وما كان محبوباً لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين، فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم: المتوكل يطلب حظوظه.

وأما قولهم إن الأمورُ قد فُرغ منها، فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء إنه لا حاجة إليه، لأن المطلوب إن كان مقدراً فلا حاجة إليه، وإن لم يكن مقدراً لم ينفع الدعاء، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً.

وكذلك قول من قال: التوكل والدعاء لا يُجلب به منفعة، ولا يُدفع به مضرة، وإنما هو عبادة محضة، وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض، وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضاً، وكذلك قول من قال: إن الدعاء إنما هو عبادة محضة.

فهذه الأقوال وما يشبهها يجمعها أصل واحد: وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدَّرة مَقضيّة يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة - أيضاً - تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يُقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلَّقةً بها من أفعال العباد، وغير أفعالهم، ولهذا كان طَرْدُ قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية.

وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الأصل مرات فأجاب عنه كما أخرجاه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: «قيل لرسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله! أعُلم أهلُ الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قالوا: ففيم العمل؟ قال: كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له»[١].

وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: «كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ فجلس ومعه مِخْصرة[٢]، فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض، ثم رفع رأسه وقال: «ما من نفسٍ منفوسة إلا وقد كُتب مكانُها من النار أو الجنة، إلا وقد كُتبت شقيةً أو سعيدة. قال: فقال رجل من القوم: يا نبي الله! أفلا نَمْكُث على كتابنا وندعَ العمل؟ فمن كان من أهل السعادة لَيكونَنّ إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة، قال: اعملوا فكلٌّ مُيسرٌ لما خُلق له. أما أهل السعادة فيُيَسَّرون للسعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسّرون للشقاوة، ثم قرأ نبي الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠]. أخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد[٣].

وروى الترمذي: «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل: يا رسول الله! أرأيت أدويةً نتداوى بها، ورُقى نسترقي بها، وتُقى نتّقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله»[٤].

وقد جاء هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عدة أحاديث.

فبيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب جن القلم على علم الله (٦٥٩٦) ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٩)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر (٤٧٠٩)، وأحمد (١٩٣٦٨).

(٢) عصا للاتكاء عليها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر (١٣٦٢)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القدر (٤٦٩٤)، وأحمد (١٠٧٠).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب الطب عن رسول الله، باب ما جاء في الرقى (٢٠٦٥)، وأحمد (١٥٠٤٦)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧).

ينافي أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة، فإنه سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة، والشقي يشقى بالأعمال السيئة، فمن كان سعيداً يُيَسَّر للأعمال الصالحة التي تقتضي السعادة، ومن كان شقياً ييسّر للأعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة، وكلاهما ميسَّر لما خُلق له، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وأما ما خُلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التي أُمروا بموجبها، فذلك مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

والله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة: من «الكلمات»، و«الأمر»، و«الإرادة»، و«الإذن»، و«الكتاب»، و«الحكم»، و«القضاء»، و«التحريم» ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعي، وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية.

مثال ذلك أنه قال في «الأمر الديني»: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] ونحو ذلك.

وقال في «الكوني»: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] على إحدى الأقوال في هذه الآية.

وقال في «الإرادة الدينية»: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وقال في «الإرادة الكونية»: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود: ٣٤]. وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وقال في «الإذن الديني»: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥].

وقال تعالى في «الكوني»: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى في «القضاء الديني»: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي أمر. وقال تعالى في «الكوني»: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقال تعالى في «الحكم الديني»: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى: في «الكوني» عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقال تعالى في «التحريم الديني»: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ

أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣].

وقال تعالى في «التحريم الكوني»: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [المائدة: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

وقال تعالى في «الكلمات الدينية»: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى في «الكونية»: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ومنه قوله ﷺ المستفيض عنه من وجوه، في الصحاح، والسنن، والمسانيد أنه كان يقول في استعاذته: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»(١).

ومن المعلوم أن هذا هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء، عن مشيئته وتكوينه. وأما الكلمات الدينية فقد خالفها الكفار بمعصيته.

والمقصود هنا: أنه ﷺ بيّن أن العواقب التي خُلق لها الناس من سعادةٍ وشَقاوةٍ ييسَّرون بالأعمال التي يصيرون بها إلى ذلك، كما أن سائر المخلوقات كذلك؛ فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوانات في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح، واجتماع الماءَيْن في الرحم، فلو قال الإنسان: أنا أتوكل ولا أطأ زوجتي، فإن كان قد قُضي لي بولد وجد، وإلا لم يوجد، ولا حاجة إلى وطء ، كان أحمق بخلاف ما إذا وطئ وعزل الماء، فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله، إذ قد يسبق الماء بغير اختياره.

ومن هذا ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: «خرجنا مع

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٠٣٥).

رسول الله ﷺ في غزوة بني المُصْطَلِق فأصبنا سَبْياً من العرب، فاشتهينا النساء، واشتدت علينا العُزْبة، وأحببنا العزل، فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما عليكم ألا تفعلوا، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة»(١).

وفي صحيح مسلم عن جابر: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قُدّر لها»(٢).

وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير، ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح ابن مريم عليه السلام، لكنْ خَلَق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة.

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع، فقد وقع في كثير من دقّة كثيرٌ من المشايخ المعظَّمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقّق لما أُمر به ونُهي عنه، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل، والجري مع الحقيقة القدرية، ويحسب أن قول القائل: (ينبغي للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل) يتضمن ترك العمل بالأمر والنهي حتى يترك ما أُمر به، ويفعل ما نهي عنه، وحتى يَضْعُف عنده النور والفرقان الذي يفرّق به بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه، وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه، فيسوّي بين ما فرّق الله بينه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «هو الله الخالق البارئ» (٧٤٠٩)، ومسلم، كتاب النكاح، باب حكم العزل (١٤٣٨)، وأبو داود، كتاب النكاح، باب ما جاء في العزل (٢١٧٢)، وأحمد (١١٠٤٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب النكاح، حكم العزل (١٤٣٩)، وأبو داود، كتاب النكاح باب ما جاء في العزل (٢١٧٣)، وأحمد (١٣٩٣٦).

نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٢] وأمثال ذلك.

حتى يفضي الأمر بغُلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور، الإلهي، النبوي، الفرقاني، الديني، الشرعي، الذي دل عليه الكتاب والسنة، وبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجار، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره، وربوبيته وإرادته العامة، وأنه داخل في ملكه، ولا يشهدون وجه الفَرْق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه، والأبرار والفجار، والمؤمنين والكافرين، وأهل الطاعة الذين أطاعوا أمره، وأهل المعصية الذين عصوا هذا الأمر، ويستشهدون في ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ، أو ببعض غلطات بعضهم.

وهذا «أصل عظيم» من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة: إرادة الذين يريدون وجهه، فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان، للمسلَّطين في الأرض من أهل الظلم والعلو، كالذين يتوجهون بقلوبهم في معاونة من يهوونه من أهل العلو في الأرض والفساد، ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أَثَّرَوْا بِهَا في ذلك كانوا بذلك من أولياء الله، فإن القلوب لها من التأثير أعظمُ مما للأبدان، لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تارة، ومكروهاً لله أخرى، وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن، حيث يجب القَوَدُ في ذلك، هؤلاء يستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني، ويُعدون مجردَ خرق العادة لأحدهم يكشف له، أو بتأثير يوافق إرادته، هو كرامة من الله له، ولا يعلمون

أنه في الحقيقة إهانة، وأن الكرامة لزومُ الاستقامة، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته، وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه الله عليهم فهم من المقتصدين، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين، مع أن كل واجب محبوب، وليس كل محبوب واجباً، وأما ما يبتلي الله به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها، أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه، ولا هوانه عليه بل قد يَسْعَد بها قوم إذا أطاعوه في ذلك، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه في ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

ولهذا كان الناس في هذه الأمور على ثلاثة أقسام:

قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في طاعة الله.

وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصية الله (كبلعام وغيره).

وقوم تكون في حقهم بمنزلة المباحات.

والقسم الأول: هم المؤمنون حقاً، المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله. ولكثرة الغلط في هذا الأصل نهى رسول الله ﷺ عن الاسترسال مع القدر[1] بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد، فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير. احرص على ما ينفعك، واستعنْ بالله، ولا

---

(١) أخرج الحديث الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٩٦ (١٤٢٧) بلفظ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا»، والديلمي في مسند الفردوس ١/ ٣٣٦ (١٣٣٧)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١٠٨ .

تَعْجزَ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدّر اللهُ وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[١].

وفي سنن أبي داود: أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يلوم على العجْز، ولكن عليك الكَيْس فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»[٢].

فأمر النبي ﷺ المؤمنَ أن يَحرص على ما ينفعه، وأن يستعين بالله، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته، إذ النافع له هو طاعة الله، ولا شيء أنفع له من ذلك، وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة، وإن كان من جنس المباح.

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لسعد: «إنك لن تُنفق نفَقةً تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمةُ تضعها في فيِّ امرأتك»[٣].

فأخبر النبي ﷺ أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكَيْس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله، فإن ذلك ينافي القدرة المقارنة للفعل، وإن كان لا ينافي القدرة المقدمة التي هي مناط الأمر والنهي.

فإن الاستطاعة التي توجب الفعل، تكون مقارنة له، ولا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز (٢٦٦٤)، وابن ماجه كتاب المقدمة، باب من القدر (٧٩)، وأحمد (٨٥٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأقضية، باب الرجل يحلف على حقه (٣٦٢٧)، وأحمد (٢٣٤٦٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم امض لأصحابي هجرتهم، (٣٩٣٦)، ومسلم كتاب الوصية باب الوصية بالثلث (١٦٢٨). والترمذي، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث (٢١١٦)، وأحمد (١٥٢٧).

[هود: ٢٠]، وفي قوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]. وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن. كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جَنْب»(١).

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه على أربعة أقسام:

فقوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة، شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أُمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخُذلان، لأن الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللُّجوء إليه، والدعاء له، هي التي تُقوي العبد، وتُيسر عليه الأمور.

ولهذا قال بعض السلف: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ صفتَه في التوراة: «إنا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، ويعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أُقيم به المِلّةَ العَوْجاء، فافتحَ به أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً، بأن يقولوا لا إله إلا الله»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب (١١١٧) والترمذي، كتاب الصلاة، باب صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم (٣٧١)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب في صلاة القاعد (٩٥٢)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب صلاة المريض (١٢٢٣)، وأحمد (١٩٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق (٢١٢٥)، وأحمد (٦٥٨٥).

ولهذا رُوي: أن حملة العرش إنما أطاقوا حَمْلَ العرش بقولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «إنها كنز من كنوز الجنة»[١].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم الخليل حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم[٢].

وقسم ثان: يشهدون ربوبيةَ الحق وافتقارَهم إليه، ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم، غير ناظرين إلى حقيقة أمره، ونهيه، ورضاه، وغضبه، ومحبته، وهذا حال كثير من المفتقرة والمتصوفة، ولهذا كثير ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود، ولا يَقصدون ما يُرضي الرب ويحبه. وكثيراً ما يَغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته، فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي، ويسمون هذا حقيقة، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوي مرضاةَ الرب، ومحبتَه، وأمره ونهيه، ظاهراً وباطناً.

وهؤلاء كثيراً ما يُسْلَبون أحوالَهم، وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام، لأن العاقبة للتقوى، ومن لم يقف

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبه (٦٣٨٤)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب منه (٣٣٧٤)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الاستغفار (١٥٢٦)، وأحمد (٨٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «إن الناس قد جمعوا لكم» (٤٥٦٣).

عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين، فهم يقعون في بعض ما وقع فيه المشركون، تارة في بدعة يظنونها شرعة، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر، والله تعالى لما ذكر ما ذمّ به المشركين في سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين، وجعلوه شرعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقد ذمهم على أَنْ حرّموا ما لم يُحرّمه الله، وأَنْ شرعوا ما لم يشرعه الله، وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ونظيرُها في النحل، ويس، والزخرف، وهؤلاء يكون فيهم شبه في هذا وهذا.

وأما القسم الثالث: وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الأقسام.

والقسم الرابع: هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]. فاستعانوا به على طاعته، وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبد إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله، وأنه ربهم الذي: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وأنه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]. ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٣٨].

ولهذا قال طائفة من العلماء: الالتفاتُ إلى الأسباب شِركٌ في التوحيد، ومحوُ الأسباب أن تكون أسباباً، نقصٌ في العقل، والإعراضُ عن الأسباب بالكلية قَدْحٌ في الشرع، وإنما التوكلُ المأمورُ به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع.

فقد تبيّن أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غَلَط غلطاً شديداً، وإن كان من أعيان المشايخ -كصاحب «علل المقامات» وهو من أجل المشايخ ، وأخذ ذلك عنه صاحب «محاسن المجالس» - وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه أن المطلوب به حظ العامة فقط، وظنَّه أنه لا فائدة له في تحصيل المقصود، وهذه حال من جعل الدعاء كذلك، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك، كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الأسباب التي هي عبادة وطاعةٌ مأمورٌ بها، فإن غلط هذا في ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾.

لكن يقال: من كان توكُّله على الله، ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة، وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة، كما أن من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله، بل خارج عن حقيقة الإيمان، فكيف يكون هذا المقام للخاصة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقد ذكر الله هذه الكلمة (حسبي الله) في جلب المنفعة تارة، وفي دفع المضرة أخرى.

فالأولى في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩].

والثانية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩] يتضمن الأمر بالرضا والتوكل.

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: «اللهم بعلمك الغيب، وبقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتَك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمةَ الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يَنْفَد، وأسألك قُرةَ عين لا تنقطع، اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لَذةَ النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، من غير ضَرَّاءَ مضرة، ولا فتنةٍ مُضِلّة، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[1]. رواه أحمد والنسائي من حديث عمار بن ياسر.

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا، ولهذا كان طائفة من المشايخ يَعْزِمون على الرضا قبل وقوع البلاء فإذا وقع انفسخت عزائمهم، كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٢-٤]. نزلت هذه الآية لما قالوا: لو علمنا أيّ الأعمال أحب إلى الله لعملناه. فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه مَن كرهه.

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب السهو، باب نوع آخر (١٣٠٥)، وأحمد (١٧٨٦١).

ولهذا كُره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك، أو يطلبَ ولاية، أو يَقْدَمَ على بلد فيه طاعون. كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر؛ وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»[١].

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تَسأل الإمارةَ فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها، وإذا حلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأْتِ الذي هو خير، وكَفِّر عن يمينك»[٢].

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدُموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها»[٣].

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «لا تَتَمنَّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، ولكنْ إذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٤].

وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء، ويحرم عليه أشياء، فيبخل بالوفاء؛ كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهوداً على أمور وغالب هؤلاء يُبتلون بنقض العهود.

---

(١) أخرجه البخاري، كتابه القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر (٦٦٠٨)، ومسلم، كتاب النذر، باب النهي عن النذر (١٦٣٩)، والنسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب النهي عن النذر (٣٨٠١)، وأحمد (٥٥٦٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب الكفارة قبل الحنث وبعده (٦٧٢٢)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها (١٦٥٢)، والترمذي كتاب النذور والأيمان، باب فيمن حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها (١٥٢٩)، وأحمد (٢٠٠٩٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٣٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة (٢٢١٩)، وأبو داود، كتاب الجنائز، باب الخروج من الطاعون (٣١٠٣)، وأحمد (١٥٨١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال (٢٩٦٦)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو (١٧٤٢)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب كراهية تمني لقاء العدو (٢٦٣١).

ويقتضي أن الإنسان إذا ابتُلي فعليه أن يصبر ويثبُت، ولا يَنكِلُ حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات. ولا بد في جميع ذلك من الصبر، ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات، وترك المحظورات. ويدخل في ذلك الصبرُ على المصائب عن أن يَجزَع فيها، والصبرُ عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه.

وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضوعاً، وقرَنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٤-١١٥]. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥].

وجعل «الإمامة في الدين» موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

فإن الدين كله علمٌ بالحق وعملٌ به، والعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: عليكم بالعلم فإنّ طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكراته تسبيح، به يُعرف الله ويُعبد، وبه يُمجَّد ويوحَّد، يرفع اللهُ بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم وينتهون إلى رأيهم[(١)].

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولابد في الجهاد من الصبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٥٢ وعزاه لابن عبد البر في العلم.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥].

فالعلمُ النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضدُّ الأول الضلال، وضد الثاني الغَيّ، فالضلالُ العمل بغير علم، والغَيّ اتباع الهوى. قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ١-٢]. فلا يُنال الهدى إلا بالعلم، ولا يُنال الرشاد إلا بالصبر، ولهذا قال علي: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبرَ له.

وأما «**الرضا**» فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء: هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين. قال عمر بن عبد العزيز: الرضا عزيز ولكن الصبر مِعْوَل المؤمن.

وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال لابن عباس: «إن استطعتَ أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً».

ولهذا لم يجئ في القرآن إلا مدحُ الراضين لا إيجابُ ذلك وهذا في الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب، كالمرض والفقر والزلزال، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فالبأساءُ في الأموال، والضراءُ في الأبدان، والزلزالُ في القلوب.

وأما «**الرضا بما أمر الله به**» فأصله واجب، وهو من الإيمان كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ذاق طَعْمَ الإيمان مَن رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً»[١]. وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً، (٣٤)، والترمذي، كتاب الإيمان، باب ترك الصلاة (٢٦٢٣)، وأحمد (١٧٨١).

تعالى، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

ومن «**النوع الأول**» ما رواه أحمد، والترمذي، وغيرهما عن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «من سعادةِ ابن آدم استخارتُه لله، ورضاه بما قسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم تركُ استخارته لله، وسَخَطُه بما يقسم الله له»[(١)].

وأما «**الرضا بالمنهيات**» من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون: لا يُشرع الرضا بها، كما لا تُشرع محبتها، فإن الله سبحانه لا يحبها ولا يرضاها، وإن كان قد قدّرها وقضاها، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]. بل يسخطها كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد:٢٨].

وقالت طائفة: ترضى من جهة كونها مضافةً إلى الله خلقاً، وتسخط من جهة كونها مضافةً إلى العبد فعلاً وكسباً. وهذا القول لا يُنافي الذي قبله، بل هما يعودان إلى أصل واحد. وهو سبحانه إنما قدّر الأشياء وكوّنها لحكمة، فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبةٌ مَرْضية، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة. إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان، يُحبَ من أحدهما، ويُكره من

(١) أخرجه الترمذي، كتاب القدر، باب الرضا بالقضاء (٢١٥١)، وأحمد (١٤٤٧).

الآخر، كما في الحديث الصحيح: «ما تَرددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مَساءتَه، ولا بد له منه»[١].

وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصْفُ الله وفعلُه، لا بالمقضي الذي هو مفعوله، فهو خروج منه عن مقصود الكلام، فإن الكلام ليس في الرضا فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وأفعاله، وإنما الكلام في الرضا بمفعولاته، والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه في غير هذا الموضع.

والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكمالُه هو الحمد، حتى أن بعضهم فسّر الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمدُ الله على كل حال، وذلك يتضمن الرضا بقضائه. وفي الحديث: «أولُ من يُدعى إلى الجنة الحمّادون، الذين يحمَدون الله في السراء والضراء»[٢].

ورُوي عن النبي ﷺ «أنه كان إذا أتاه الأمر يَسُرُّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تَتِمّ الصالحات، وإذا أتاه الأمر الذي يسوؤه قال: الحمد لله على كل حال»[٣].

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إذا قُبض ولدُ العبد يقول الله لملائكته: أقبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمِدَك واسترجع، فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسمُّوه بيت الحمد»[٤]. ونبيُّنا محمد ﷺ هو صاحب لواء الحمد، وأمته هم الحمّادون الذين يحمَدون الله على السراء والضراء. والحمدُ على الضراء يوجبه مشهدان:

أحدهما: علمُ العبد بأن الله سبحانه مستوجبٌ لذلك، مستحقٌ له لنفسه،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣/ ٢٤٠ (٣٠٣٣) والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٩١ (٤٣٧٤)، والديلمي في الفردوس ١/ ١٦(١٤).

(٣) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين (٣٨٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة (١٠٢١)، وأحمد (١٩٢٢٦).

فإنه أحسن كل شيء خلَقه، وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم، الخبير الرحيم.

والثاني: علمُه بأن اختيار الله لعبده المؤمن، خيرٌ من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له»[1].

فأخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وذكرهما في أربعة مواضع من كتابه. [إبراهيم: ٥، لقمان: ٣١، سبأ: ١٩، الشورى: ٢٣].

فأما من لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء، فلا يَلزَم أن يكون القضاء خيراً له، ولهذا أجيب مِن أورد هذا على ما يقضي على المؤمن من المعاصي بجوابين:

أحدهما: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبدَ لا ما فعله العبد، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي من سراء، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي من ضراء. وكقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. أي بالسراء والضراء كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. فالحسنات والسيئات يراد بها المَسارُّ والمضارُّ، ويراد بها الطاعات والمعاصي.

والجواب الثاني: أن هذا في حق المؤمن الصبار الشكور. والذنوب تُنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة. قال بعض السلف: كان داوود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، فمن قُضي له بالتوبة كان

---

(١) أخرج نحوه مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٤٦٠).

كما قال سعيد بن جبير: إن العبد لَيعملُ الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد لَيعملُ السيئة فيدخل بها الجنة. وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نُصْبَ عينه ويُعْجَبُ بها، ويعمل السيئة فتكون نُصبَ عينه، فيستغفرُ اللهَ ويتوب إليه منها. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الأعمال بالخواتيم»(١). والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعَشرة أسباب:

أن يتوبَ فيتوبَ الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

أو يستغفرَ الله فيُغفرَ له.

أو يعملَ حسنات تمحوها، فإن الحسنات يُذهبن السيئات.

أو يدعو له إخوانُه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً.

أو يُهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

أو يشفع فيه نبيُّه محمد ﷺ.

أو يبتليه الله تعالى في الدنيا بمصائبَ تُكَفِّرُ عنه.

أو يبتليه في البرزخ بالفتنة والصَّعقة فيُكفَّر بها عنه.

أو يبتليه في عَرَصات القيامة من أهوالها ما يُكفِّر عنه.

أو يرحمه أرحمُ الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسَه، كما قال تعالى فيما يروي عنه رسولُهﷺ: «ياعبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوَفيّكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»(٢).

فإن كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صباراً شكوراً، أو كان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارتَه لله، ورضاه بما قسم الله له، كان قد رضي بما هو خير له.

وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه قال: «إن الله يقضي

(١) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم (٦٦٠٧)، وأحمد (٢٢٣٢٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

بالقضاء، فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السَّخَط»[١]. ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة، فالرضا بعد القضاء، والاستخارة قبل القضاء، وهذا أكمل من الضراء والصبر، فلهذا ذُكر في ذاك الرضا، وفي هذا الصبر.

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له فكيف مع الرضا، ولهذا جاء في الحديث «المصاب من حرم الثواب»[٢] في الأثر الذي رواه الشافعي في مسنده: أن النبي ﷺ لما مات سمعوا قائلاً يقول: «يا آل بيتِ رسولِ الله ﷺ إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخَلَفاً من كل هالك، ودَرَكاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا. فإن المُصابَ من حُرم الثواب»[٣].

ولهذا لم يؤمر بالحزن المُنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، فقد يكون فيه مضرة، لكنه يُعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله.

لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسنٌ مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، وبهذا تعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى على الميت وقال: «إن هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٤] فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظِّه لا لرحمة الميت، وأن الفُضيلَ بن عياض لما مات ابنه علي فضحك وقال: (رأيت أن الله قد قضى فأحببتُ أن أرضى بما قضى الله به) حالةَ حالٌ حسن بالنسبة إلى أهل الجزَع.

وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمدِ الله تعالى كحال النبي ﷺ فهذا أكمل. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]. فذكر سبحانه التواصي بالصبر والمرحمة.

---

(١) أخرج نحوه الترمذي، كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء (٢٣٩٦)، وابن ماجه كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٣١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٣/ ١٢٩ (٢٨٩١).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده ص(٣٦١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي «يعذب الميت ببعض بكاء أهله» (١٢٨٤)، ومسلم، كتاب الجنائز، البكاء على الميت (٩٢٣)، والنسائي كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة (١٨٦٨)، وأحمد (٢١٢٧٢).

والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة. ومنهم من يكون فيه رحمةٌ بجزَع. ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع. والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس.

وقد ظن طائفة من المصنفين في هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له، وهذا إنما يتوجه على «المأخذ الأول» وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه، مع قطع العبدِ النظرَ عن حظه، بخلاف «المأخذ الثاني» وهو الرضا لعلمه بأن المقضيَّ خير له، ثم إن المحبة متعلقةٌ به، والرضا متعلق بقضائه، لكن قد يقال في تقرير ما قال هذا المصنف ونحوه: إن المحبة لله نوعان: محبةٌ له نفسِه، ومحبةٌ له لما فيه من الإحسان، وكذلك الحمد له نوعان: حمدٌ له على ما يستحقه نفسه، وحمدٌ على إحسانه إلى عبده، فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة.

وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة، ولهذا ذكر النبي ﷺ ذوقَ طعم الإيمان، كما ذكر في المحبة وجودَ حلاوة الإيمان.

وهذان الحديثان الصحيحان هما أصل فيما يُذكر من الوجد والذوق الإيماني الشرعي، دون الضلالي البدعي.

ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً»[١].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه وجد بهن حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يُحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه اللهُ منه كما يكره أن يلقى في النار»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر (٢١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣)، والترمذي كتاب الإيمان، باب ترك الصلاة (٢٦٢٤)، والنسائي، كتاب الإيمان وشرائعه باب حلاوة الإسلام (٤٩٨٩).

وهذا مما يُبيَّن من الكلام على المحبة فنقول:

محبة الله تعالى ورسوله ﷺ

محبة الله بل محبةُ الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله وأجلِّ قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تَصدُر عن محبة، إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة، كما قد بسطنا ذلك في «قاعدة المحبة» من القواعد الكبار.

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة.

وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أُريدَ به وجهُه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك»[١].

وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أولُ من تُسَعَّرُ بهم النارُ: «القارئ المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي»[٢].

بل إخلاص الدين لله تعالى هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بَعَثَ به الأولين والآخِرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه. قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥) وابن ماجه كتاب الزهد باب الرياء والسمعة (٤٢٠٢).

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة (١٩٠٥) وهو حديث طويل، والنسائي، كتاب الجهاد، باب من قاتل ليقال فلان جريء (٣١٣٧)، والترمذي، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٢٣٨٢)، وأحمد (٨٠٧٨).

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١-٣]. والسورة كلها عامّتها في هذا المعنى. كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١١-١٥] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨] إلى قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٣-٤٥] إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الآية: ٦٤] إلى قول: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الآية: ٦٦].

وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وإبليس أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فبيّن أن سلطان الشيطان إنما هو لغير المخلصين، ولهذا قال في قصة يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وأتباع الشيطان هم أصحاب النار، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٥]. وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وهذه الآية في حق من لم يتب، ولهذا خصص الشرك، وقيّد ما سواه بالمشيئة، فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه، وما دونه يغفره لمن يشاء. وأما قوله: ﴿قُلْ

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]. فتلك في حق التائبين، ولهذا عم وأطلق، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها.

وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخِرين إنما أُمروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي ﷺ على أُبَيٍّ لما أمره الله تعالى أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه[١] فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٤-٥].

وهذا حقيقة قول لاإله إلا الله. وبذلك بعث جميع الرسل. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وكذلك هود، وصالح، وشعيب عليهم السلام، وغيرهم، كل يقول: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ لا سيما أفضلُ الرسل اللذين اتخذ الله كلاهما خليلاً إبراهيم ومحمداً عليهما السلام، فإن هذا الأصل بيّنه الله بهما، وأيدهما فيه ونشره بهما، فإبراهيم صلوات الله عليه هو الإمام الذي قال الله فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل، فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم. قال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب أبي بن كعب (٣٨٠٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل (٧٩٩)، والترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل (٣٧٩٢)، وأحمد (١١٩١١).

فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله، وهي البراءة من كل معبود؛ إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس: ٢٢-٢٤]. وقال تعالى في قصته، بعد أن ذكر ما يبين ضلال من اتخذ بعض الكواكب رباً يعبده من دون الله، قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ [الأنعام: ٧٨-٨١].

وقال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨١]. وقال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

ونبينا ﷺ هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله، دينَ التوحيد، وقمع به المشركين من كان مشركاً في الأصل، ومن الذين كفروا من أهل الكتب، وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وغيره: «بُعثتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحدَه لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظِلِّ رُمحي، وجُعل الذِّلةُ والصَّغارُ على من خالف أمري، ومن تَشبَّه بقوم فهو منهم»[1]، وقد تقدم بعض ما أنزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد .

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ

---

(١) أخرج نحوه البخاري تعليقاً، كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح، وأخرجه أحمد (٥٠٩٣).

إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصافات: ١-٤٢]. إلى ما ذكره من قصص الأنبياء في التوحيد وإخلاص الدين لله، إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [١٥٩-١٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

وفي الجملة فهذا الأصلُ سورة الأنعام، والأعراف، والنور، وطسم، وحم، والمر، وسور المفصل، وغير ذلك من السور المكية، ومواضع من السور المدينة كثيرٌ ظاهر، فهو أصل الأصول، وقاعدة الدين، حتى في سورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وهاتان السورتان كان النبي ﷺ يقرأ بهما في صلاة التطوع كركعتي الطواف، وسنة الفجر، وهما متضمنتان للتوحيد.

فأما ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي، وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة، وهو الذي يتكلم به مشايخ التصوف غالباً، وأما سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فمتضمنة للتوحيد القولي العملي كما ثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رجلاً كان يقرأ: قل هو الله أحد في صلاته فقال النبي ﷺ: «سلوه: لِمَ يفعلُ ذلك؟» فقال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال: «أخبروه أن الله يحبه»[(١)].

ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذي ينفي قولَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب دعاء النبي أمته إلى توحيد الله (٧٣٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة (قل هو الله أحد) (٨١٣)، والنسائي كتاب الافتتاح، باب الفضل في قراءة (قل هو الله أحد) (٩٩٣).

أهل التعطيل وقولَ أهل التمثيل، ما صارت به هي الأصل المعتمد في مسائل الذات كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع. وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير: الأحد الصمد، كما جاء تفسيره عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، ومادل على ذلك من الدلائل.

لكن المقصود هنا هو «التوحيد العملي» وهو إخلاص الدين لله، وإن كان أحد النوعين مرتبطاً بالآخر. فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الْجَهْمِيّة، وأهل التمثيل المشبِّهة إلا وفيه نوعٌ من الشرك العملي، إذ أصلُ قولهم فيه شركٌ وتسوية بين الله وبين خلقه، أو بينه وبين المعدومات، كما يُسوي المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التي لا تستلزم مدحاً ولاثبوتَ كمال، أو يُسوون بينه وبين الناقص من الموجودات في صفات النقص، وكما يُسوون إذا أثبتوا هم ومن ضاهاهم من المممثلة بينه وبين المخلوقات في حقائقها، حتى قد يعبدونها فيعدلون بربهم، ويجعلون له أنداداً، ويسوون المخلوقات برب العالمين.

فاليهود كثيراً ما يعدلون الخالق بالمخلوق، ويُمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز، والفقر، والبخل، وغير ذلك من النقائص التي يجب تنزيهه عنها، وهي من صفات خلقه، والنصارى كثيراً ما يعدلون المخلوق بالخالق، حتى يجعلوا في المخلوقات من نعوت الربوبية، وصفات الإلهية، ويُجوّزون له ما لا يصلح إلا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

والله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين و الصديقين و الشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين. وقد قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»[1]. وفي هذه الأمة مَن فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء، كما قال

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٩٥٤). وأحمد (١٨٨٩١).

النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سنن من كان قبلكم، حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جحرَ ضبٍّ لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهودُ والنصارى، قال: فمن»[١]. والحديث في الصحيحين.

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله، وهو إرادة الله وحدَه، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهو كمال المحبة، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة: كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. وأمثال هذا.

والعبادة تتضمن كمالَ الحب ونهايتَه، وكمالَ الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يُعظَّم ولا يُذلُّ له لا يكون معبوداً، والمعظَّم الذي لا يُحَبّ لا يكون معبوداً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فبيّن سبحانه أن المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أنداداً، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله ولأوثانهم؛ لأن المؤمنين أعلم بالله، والحبُّ يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده ، ومعلوم أن ذلك أكمل، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٩﴾ [الزمر: ٢٩].

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله، ويحب رسلَه وأنبياءه وعباده المؤمنين، وإن كان ذلك من محبة الله، وإن كانت المحبة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (٧٣٢٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩٤)، وأحمد (٨١٤٠)

التي لله لا يستحقها غيره، ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة لله، والإنابة إليه، والتبتل له، ونحو ذلك. فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى.

ثم إنه كما بيّن أن محبته أصل الدين، فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصَه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال: «رأس الأمر: الإسلام، وعَموده: الصلاة، وذروة سَنامه الجهاد في سبيل الله»(١).

فأخبر النبي ﷺ أن الجهاد ذروة سنام العمل، وهو أعلاه وأشرفه. وقد قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٩-٢٢].

والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة، وقد ثبت أنه أفضل ما تَطوَّعَ به العبد، والجهاد لازم دليل المحبة الكاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]. فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلةٌ على المؤمنين، أعزةٌ على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم.

فإن المحبة مستلزمة للجهاد، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وأحمد (٢١٥٢٢).

ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك، وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم، ويغضب لغضبهم، إذ هم إنما يرضون لرضاه، ويغضبون لما يغضب له، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال: «لعلك أغضبتهم؟ لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبت ربك. فقال لهم: يا إخوتي! هل أغضبتُكم؟ قالوا: لا؛ يغفرُ الله لك يا أبا بكر!»[1].

وكان قد مرّ بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذَها، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لسيد قريش؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فقال له ما تقدم، لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله، لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله، والمعاداة لأعداء الله ورسوله.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يروي عن ربه: «لايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببتُه كنت سَمْعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبْطِشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولابد له منه»[2].

فبين سبحانه أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبدُه، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال: وأنا أكره مساءته، وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت، فسمى ذلك تردداً، ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك.

وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المَرضيّ المأمور به، والمبغَضِ المكروهِ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل سلمان وصهيب وبلال (٢٥٠٤) وأحمد (٢٠١١٧).

(٢) تقدم تخريجه

المنهي عنه، وقد يقال له: اتحاد نوعي وصفي، وليس ذلك اتحاد الذاتين فإن ذلك محال ممتنع، والقائل به كافر، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة وجهال النُسّاك كالحَلاّجِيّة[1] ونحوهم، وهو «الاتحاد المقيَّد» في شيء بعينه.

وأما «الاتحاد المطلق» الذي هو قولُ أهل وحدة الوجود[2] الذين يزعمون: أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، فهذا تعطيل للصانع وجحود له، وهو جامع لكل شرك.

فكما أن الاتحاد نوعان، فكذلك الحلول نوعان: قوم يقولون: بالحلول المقيد في بعض الأشخاص، وقوم يقولون: بحلوله في كل شيء، وهم الجهمية الذين يقولون: إن ذات الله في كل مكان.

وقد يقع لبعض المختلطين من أهل الفناء في المحبة أنه يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبِّه، ويغيب بمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، وبموجوده عن وجوده، حتى لا يشهد إلا محبوبه؛ فيظن في زوال تمييزه، ونقص عقله

---

(١) الحلاَّجية: هم أتباع الحسين بن منصور الحلاَّج أبو مغيث: فيلسوف يعدُّ في زمرة الملحدين، أصله من بيضاء فارسي ونشأ بواسط العراق (أو بتستر) وانتقل إلى البصرة وحج ودخل بغداد وعاد إلى تستر وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ فاتبع بعض الناس طريقته وكان يظهر مذهب الشيعة للملوك (العباسيي) ومذهب الصوفية للعامة وهو في تضاعيف ذلك يدعي حلول الإلهية فيه وكثرة الوشايات فيه إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه فسجن وعذب وضرب، قال ابن خلكان: وقطعت أطرافه الأربعة ثم حز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة ونصب الرأس على جسر بغداد، وقال ابن النديم في وصفه: كان محتالاً يتعاطى مذاهب الصوفية ويدعي كل علم، جسوراً على السلاطين، مرتكباً للعظائم يروم إقلاب الدول ويقول بالحلول. (الأعلام: ٢/ ٢٦٠).

(٢) وهم الذين موهوا على السالكين التوحيد الذي أنزل اللّه تعالى به الكتب وبعث به الرسل - بالاتحاد الذي سموه توحيداً وحقيقته تعطيل الصانع وجحود الخالق وأن وجود ذات الله خالق السماوات والأرض هي نفس وجود المخلوقات. فلا يتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلق غيره، لا أنه رب العالمين، ولا أنه غني وما سواه فقير. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. انظر: الفتاوى (٢/ ٤٦٤-٤٧٩) فقد بيّن المؤلف رحمه الله أصول اعتقادهم ومسلك مشايخهم.

وسكره، أنه هو محبوبه. كما قيل: إن محبوباً وقع في اليم فألقى المحب نفسه خلفه، فقال: أنا وقعتُ فأنت ما الذي أوقعك، فقال: (غِبْتُ بك عني، فظننت أنك أني). فلا ريب أن هذا خطأ وضلال.

لكن إذا كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذوراً في زوال عقله، فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام في هذا الحال التي زال فيها عقله بغير سبب محظور، كما قيل في عقلاء المجانين: إنهم قوم آتاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم، وأبقى أحوالهم، وأسقط مافَرَضَ بما سلب.

وأما إذا كان السبب الذي زال به العقل محظوراً لم يكن السكران معذوراً، وإن كان لا يحكم بكفره في أصح القولين، كما لا يقع طلاقه في أصح القولين، وإن كان النزاع في الحكم مشهوراً. وقد بسطنا الكلام في هذا، وفيمن يسلم له حاله ومن لا يسلم في«قاعدة» ذلك.

وبكل حال؛ فالفناء الذي يفضي بصاحبه إلى مثل هذا حال ناقص، وإن كان صاحبه غير مكلف، ولهذا لم يَرِدْ مثل هذا عن الصحابة الذين هم أفضل هذه الأمة، ولا عن نبينا محمد ﷺ وهو أفضل الرسل، وإن كان لهؤلاء في صَعْقِ موسى نوعُ تعلُّق، وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم.

وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته، فمن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولابد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

والمحب التام لا يؤثر فيه لومُ اللائم وعذلُ العاذل، بل ذلك يُغريه بملازمة المحبة، كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود،

وهم الذين لايخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه، من جهاد أعدائه، فإن المَلام على ذلك كثير.

وأما الملام على فعل مايكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبرُ على هذا الملام، بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وبهذا يحصل الفرق بين «الملامية» الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله، ولايخافون لومة لائم في ذلك، وبين «الملامية» الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله، ويصبرون على الملام في ذلك.

العبادة تستدعي المحبة

وإذا كانت المحبةُ أصلَ كل عمل ديني، فالخوفُ والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه. والخائف يَفِر من الخوف لينال المحبوب. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨].

و«رحمته» اسم جامع لكل خير. و«عذابُه» اسم جامع لكل شر. ودار الرحمة الخالصة هي الجنة، ودار العذاب الخالص هي النار. وأما الدنيا فدار امتزاج. فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى وجه الله، كما في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ نادى منادٍ. يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكُموه. فيقولون: ماهو؟ ألم يُبَيِّضْ وجوهنا؟ ألم يُثَقِّل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجيَنا من النار؟. قال: فيُكشِفُ الحجابَ فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه»[1] وهو الزيادة.

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: ماعبدتُك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكلُ والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحوُ ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، كما يوافقه على ذلك من يُنكر رؤيةَ الله من الجهمية، أو من يُقر بها ويزعُم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله، كما

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (١٨١)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة يونس (٣١٠٥)، وابن ماجه كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٧)، وأحمد (١٨٤٥٦)

يقوله طائفة من المتفقهة. فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة والآخرة لايدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات، ولهذا قال بعض من غَلَطَ من المشايخ لما سمع قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قال: فأين من يريد الله؟!. وقال آخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] قال: إذا كانت والأموال والأنفس بالجنة فأين النظر إليه، وكل هذا لظنِّهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر.

و«التحقيق» أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظرُ إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة، كما أخبرت به النصوص.

وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم، يدخلون النار.

مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفاً بما يقول فإنما قصده: أنك لو لم تخلقْ ناراً، ولو لم تخلق جنة لكان يجب أن تُعبد، ويجب التقربُ إليك، والنظر إليك، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق. وأما عمل الحي بغير حب ولا إرادة أصلاً فهذا ممتنع وإن تخيله بعض الغالطين من النُسّاك، وظنّ أن كمال العبد أن لا تبقى له إرادة أصلاً فذاك لأنه تكلم في حال الفناء، والفاني الذي يشتغل بمحبوبه - له إرادة ومحبة؛ ولكن لا يشعر بها. فوجود المحبة شيء، والإرادة شيء، والشعور بها شيء آخر. فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط، فالعبد لايتُصور أن يتحركَ قط إلا عن حب وبغض وإرادة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أصدقُ الأسماء حارث وهمّام»[1].

فكل إنسان له حَرْث وهو العمل، وله هَمّ وهو أصل الإرادة، ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه إلى طاعته، ومن إجلاله والحياء منه ما ينهاه عن معصيته، كما قال عمر رضي الله عنه: «نِعْمَ العبدُ صُهيبٌ! لو لم يخفِ الله لم يَعْصِه»[2] أي: هو لم يعصه ولو لم يخفه فكيف إذا خافه، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، وأحمد (١٨٥٥٣).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/٤٢٨ (٢٨٣١) وقال: «ذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر =

فالراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذُّب باحتجاب الرب عنه، والتنعُّم بتجلِّيه له، فمعلوم أن هذا من توابع محبته له، فالمحبة هي التي أوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب، وإن تعلق خوفه ورجائه بالتعذب بمخلوق، والتنعم به فهذا إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزِمة محبتَه، ثم إذا وجد حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل محبة، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء، كما في الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهَمون التسبيحَ كما يلهمون النفس»[1].

وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته. فالخوفُ من التعذب بمخلوق والرجاءُ له يسوقه إلى محبة الله التي هي الأصل.

وهذا كله ينبني على «أصل المحبة» فيقال: قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين لربهم، ومحبة الرب لعباده المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[2].

= به بعد البحث وكذا كثير من أهل اللغة، لكن نقل في المقاصد عن الحافظ ابن حجر أنه ظفر به في شكل الحديث لابن قتيبة من غير إسناد».

وملا علي القاري في المصنوع ١/ ٢٠٢ (٣٨٥) وقال: لا أصل له.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب صفات الجنة وأهلها (٢٨٣٥)، وأحمد (١٤٦٩٧)، والدارمي كتاب الرقاق، باب أهل الجنة ونعيمها (٢٨٢٧).

(٢) تقدم تخريجه

بل محبة رسول الله ﷺ وجبت لمحبة الله كما في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده! لايؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[١].

وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: «والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا ياعمر! حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال: والله لأنت أحب إلّي من نفسي قال: الآن ياعمر»[٢].

وكذلك محبةُ صحابته وقرابته، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بُغْضُ الأنصار»[٣]. وقال: «لايبغض الأنصارَ رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر»[٤].

وقال علي رضي الله عنه: «إنه لعهد النبي الأمي إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان (١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله (٤٤)، والنسائي، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان (٥٠١٣)، وأحمد (١٢٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، (٦٦٣٢)، وأحمد (١٧٥٨٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار (١٧) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان (٧٤)، والنسائي، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان (٥٠١٩)، وأحمد (١١٩٠٧).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان (٧٦)، وأحمد (١١٠١٥).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان (٧٨)، والنسائي، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (٥٠٢٢)، وابن ماجه كتاب المقدمة، باب فضل علي (١١٤)، وأحمد (٦٤٣).

وفي السنن أنه قال للعباس: «والذي نفسي بيده لايدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[١] يعني بني هاشم.

وقد روي حديثٌ عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال: «أحبوا الله لما يَغْذوكم به من نعَمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لأجلي»[٢].

وأما محبة الرب سبحانه لعبده فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]. ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة، وكذلك حبه لأهلها، وهم المؤمنون أولياء الله المتقون.

وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة.

والذي عليه سلف الأمة وأئمتها، وأهل السنة والحديث، وجميع مشايخ الدين المتبعون، وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوبٌ لذاته محبة حقيقية؛ بل هي أكمل محبة، فإنها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية. وأنكرت الجَهْمية حقيقة المحبة من الطرفين، زعماً منهم أن المحبة لاتكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لامناسبة بين القديم والمحدَث توجب المحبة، وكان

---

(١) أخرج نحوه أحمد (١٧٨٠)، والترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب العباس (٣٨٥٧)، ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب فضل العباس (١٤٠) كلهم بلفظ لا يدخل قلب رجل الإيمان؟).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي (٣٧٨٩).

أولى من ابتدع هذا في الإسلام هو الجَعْد بن درهم في أوائل المئة الثانية فضحّى به خالد بن عبد الله القسْري أمير العراق والمشرق بواسط. خَطَب الناسَ يوم الأضحى فقال: أيها الناس، ضحّوا تقبّل الله ضحاياكم فإني مَضَحٍّ بالجَعْد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يُكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه. وكان قد أخذ هذا المذهب عنه الجَهْمُ بن صفوان، فأظهره وناظر عليه. وإليه أضيف قول الجَهْمية. فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عُبيد وظهر قولهم أثناء خلافة المأمون، حتى امتُحن أئمةُ الإسلام ودُعوا إلى الموافقة لهم على ذلك.

وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين، والصابئة، من البراهمة، والمتفلسفة، ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام، وهم يعبدون الكواكب، ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها، وهم يُنكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلاً، وموسى كَليماً، لأن الخُلّة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل:

قد تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الروحِ مني وبذا سُمّيَ الخليلُ خليلاً

ويشهد لهذا ماثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «لوكنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله». - يعني نفسه -.

وفي رواية: «إني أَبْرأُ إلى كل خليل من خُلّتِه، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً». وفي رواية: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[1]. فبين ﷺ أنه لايصلح له أن يتخذ من المخلوقِينَ خليلاً، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس بها أبو بكر الصديق رضي الله

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣٢)، وابن ماجة، كتاب المقدمة، باب فضل العباس (١٤١).

عنه. مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كما قال لمعاذ: «والله إني لأحبك»[١]. وكذلك قوله للأنصار. وكان زيد بن حارثة حِبَّ رسول الله ﷺ، وكذلك ابنُه أسامةُ حِبه، وأمثال ذلك. وقال له عَمرو بن العاص: «أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟ قال: عائشة. قال: فمِن الرجال؟ قال: أبوها»[٢]. وقال لفاطمة ابنته رضي الله عنها: «ألا تُحبين ماأُحب؟ قالت: بلى. قال: فأَحِبّي عائشة»[٣]. وقال للحسن: «اللهم إني أُحبه فأَحِبَّه وأَحِبَّ من يُحبه»[٤]. وأمثال هذا كثير.

فوصف نفسه بمحبة الأشخاص وقال: «إني أَبْرأُ إلى كل خليل، من خلتِه، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً».

فعُلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة، بحيث هي من كمالها، وتخلَّلها المحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا لشيء آخر، إذ المحبوب لشيءٍ غيرِه هو مؤخَّر في الحب عن ذلك الغير.

ومن كمالها لاتقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب، ففيها كمالُ التوحيد، وكمالُ الحب.

فالخُلة تنافي المزاحمة، وتَقَدُّم الغير، بحيث يكون المحبوب محبوباً لذاته محبة لايزاحمه فيها غيره،وهذه محبة لاتصلح إلا لله، فلا يجوز أن يُشْرِكَهُ غيرهُ فيما يستحقه من المحبة وهو محبوب لذاته، وكل ما يحب غيره - إذا كان محبوباً بحق- فإنما يُحَبُّ لأجله، وكل ما أُحِبَّ لغيره فمحبته باطلة. فالدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ماكان لله تعالى.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (١٥٢٢)، وأحمد (٢١٦١٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٦٢) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر (٢٣٨٤)، والترمذي، كتاب المناقب، باب من فضل عائشة (٣٨٨٥)، وابن ماجه، كتاب المقدمة، باب فضل أبي بكر الصديق (١٠١)، وأحمد (١٧٣٥٥).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة (٢٤٤٢)، وأحمد (٢٤٠٥٤).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب السخاب للصبيان (٥٨٨٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين (٢٤٢١)، وابن ماجة، كتاب المقدمة، باب فضل الحسن والحسين (١٤٢)، وأحمد (٧٣٥٠).

وإذا كانت الخلة كذلك فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوباً لذاته ينكر مخالَلَته. وكذلك أيضاً إن أنكر محبته لأحد من عباده فهو ينكر أن يتخذه خليلاً، بحيث يُحب الربُ، ويحبه العبد على أكمل مايصلح للعباد.

وكذلك تكليمُه لموسى أنكروه لإنكارهم أن تقوم به صفة من الصفات، أو فعل من الأفعال، فكما ينكرون أن يتصف بحياة، أو قدرة، أو علم، أو أن يستوي، أو أن يجيء.

فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يُكلِّم، فهذا حقيقة قولهم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١٨].

لكن لما كان الإسلام ظاهراً، والقرآن متلواً لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام، أخذوا يُلحدون في أسماء الله، ويُحرِّفون الكلم عن مواضعه، فَتَأَوَّلوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته، أوالتقرب إليه، وهذا جهل عظيم، فإن محبة المتقرِّب إلى المتقربَّ إليه تابع لمحبته وفرع عليه، فمن لا يحب الشيءَ لا يمكن أن يحب التقربَ إليه، إذ التقربُ وسيلة، ومحبةُ الوسيلة تبعٌ لمحبة المقصود، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة.

وكذلك **(العبادة والطاعة)** إذا قيل في المطاع المعبود: إن هذا يحب طاعته وعبادته، فإن محبته ذلك تبعٌ لمحبته، وإلا فمن لا يحب لا يحب طاعته وعبادته.

ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنه يكون معاوضاً له، أو مفتدياً منه، ولايكون محباً له. ولا يقال إن هذا يحبه، ويفسَّر ذلك بمحبة طاعته وعبادته، فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبةَ الوسيلة، أو غيرَ محبةِ الوسيلة، فإن ذلك يقتضي أن يُعبر بلفظين محبةِ العوض والسلامة عن محبة العمل.

أما محبة الله فلا تعلُقَ لها بمجرد محبة العوض، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض، لا يقال إن الأجير يحبه بمجرد ذلك، بل قد يستأجر الرجل من

لا يحبه بحال، بل من يبغضه، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذِّب، لا يقال إنه يحبه، بل يكون مبغضاً له. فعُلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه، يمتنع أن لا يكون معناه إلا مجردَ محبةِ العمل الذي ينالون به بعض الأعواض المخلوقة من غير أن يكون ربهم محبوباً أصلاً.

وأيضاً فلفظ (العبادة) متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم، ولهذا كانت محبةُ القلب للبشر على طبقات.

أحدها «العلاقة» وهو تعلق القلب بالمحبوب. ثم «الصَّبَابة» وهو انصباب القلب إليه. ثم (الغَرام) وهو الحب اللازم. ثم «العشق» وآخر المراتب هو «التَّتَيُّم» وهو التعبُّد للمحبوب، والمتيَّم: المعبود، وتَيْمُ الله: عبد الله فإن المحب يبقى ذاكراً معبَّداً مذلَّلاً لمحبوبه.

وأيضاً فاسم الإنابة إليه يقتضي المحبة أيضاً، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم.

وأيضاً فلو كان هذا الذي قالوه حقاً من كون ذلك مَجازاً لما فيه من الحذف والإضمار، فالمجاز لا يُطلق إلا بقرينة تبين المراد. ومعلوم أنْ ليس في كتاب الله وسنة رسوله ماينفي أن يكون الله محبوباً، وأن لايكون المحبوب إلا الأعمال لا في الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا في العقل أيضاً.

وأيضاً فمن علامات المجاز صحةُ إطلاقِ نفيه. فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يحب ولا يحب، كما أطلق إمامُهم الجَعْدُ بنُ دِرْهَم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين، فعُلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازاً، بل هي حقيقة.

وأيضاً فقد فرّق بيْن محبته ومحبة العمل له في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، كما فرق بين محبته ومحبة رسوله في قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبةَ العمل، لكان هذا تكريراً، أو من باب عطف الخاص على العام، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد.

وكما أن محبته لايجوز أن تفسّر بمجرد محبة رسوله، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له، وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له.

وأيضاً فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لاعن محبة نفسه أمراً لايُعرف في اللغة لاحقيقةً ولا مجازاً، فحمْلُ الكلام عليه تحريفٌ مَحْض أيضاً، وقد قررنا في مواضع من القواعد الكبار، أنه لايجوز أن يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته، كما لايجوز أن يكون غير الله موجوداً بذاته، بل لاربَّ إلا الله، ولا إله غيرُه، والإله: هو المعبود الذي يستحق أن يُحَبَّ لذاته، ويُعظَّمَ لذاته، كمالَ المحبة والتعظيم.

وكل مولود يولد على الفطرة، فإن الله سبحانه فطَر القلوب على أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه إلا اللهُ وحدَه، وأن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم، وملبوس، ومنظور، ومسموع، وملموس يجد من نفسه أن قلبه يطلب شيئاً سواه، ويحب أمراً غيره يتألَّهُه، ويصمُد إليه، ويطمئن إليه، ويرى مايشبهه من هذه الأجناس، ولهذا قال الله تعالى في كتابه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وفي الحديث الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ عن الله تعالى أنه قال: «إني خلقتُ عبادي حنفاءَ، فاجتالتْهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ماأحلَلتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي مالم أنزِّل به سلطاناً»[(١)].

كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ مولود يولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنَصِّرانه، ويُمَجِّسانه، كما تُنتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ هل تُحسّون فيها من جدعاء»[(٢)] ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات (١٣٥٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨)، وأحمد (٧٦٥٥).

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وأيضاً فكل ما فُطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال، وكل مافي غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى، فهو المستحق لأن يُحَبَّ على الحقيقة والكمال.

وإنكارُ محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكارٌ لكونه إلهاً معبوداً، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته، وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً، فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونِه ربَّ العالمين، ولكنه إله العالمين، وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود.

ولهذا اتفقت الأمَّتان قبلنا على ماعندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه، أن أعظم الوصايا: أن تُحب الله بقلبك وعقلك وقصدك، وهذا هو حقيقة الحنيفيةِ ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن، وإنكارُ ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداءِ إبراهيم الخليل، ومن وافقهم على ذلك من متفلسف، ومتكلم، ومتفقه، ومبتدع، أخذه عن هؤلاء، وظهر ذلك في القرامطة الباطنية من الإسماعيلية، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]. وقال أيضاً: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. وهو السليم من الشرك. وأما قولهم: «إنه لا مناسبة بين المحدَث والقديم توجب محبَته له وتمتعَه بالنظر إليه» فهذا الكلام مجمل، فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالدٌ فهذا حق، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة مابين الناكح والمنكوح، والآكل والمأكول، أو نحو ذلك، فهذا أيضاً حق، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محِباً عابداً، والآخر معبوداً محبوباً، فهذا هو رأس المسألة، فالاحتجاجُ به مصادرة على المطلوب، ويكفي في ذلك المنع.

ثم يقال: بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التي بين المخلوق والخالق الذي لا إله غيره، الذي هو في السماء إله، وفي الأرض إله، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وحقيقة قول هؤلاء جَحْدُ كَوْنِ الله معبوداً في الحقيقة، ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين، الذين ينكرون أن يكون الله مُحِباً في الحقيقة، فأقروا بكونه محبوباً، ومنعوا كونه مِحباً، لأنهم تصوفوا مع ماكانوا عليه من قول أولئك المتكلمة، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم في المحبة، وإن كانوا قد يَخْلِطون فيه، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجَهمية. فأما محبة الربِّ عبدَه فهم لها أشد إنكاراً، ومنكروها قسمان:

(قسم) يتأوّلونها بنفس المفعولات التي يحبها العبد، فيجعلون محبته نفسَ خَلْقه.

و(قسم) يجعلونها نفسَ إرادته لتلك المفعولات. وقد بسطنا الكلام في ذلك في «قواعد الصفات والقدر» وليس هذا موضعها.

ومن المعلوم أنه قد دل الكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب، وإن لم يكن ذلك موجوداً، وعلى أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان، والأفعال كالفسق والكفر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

والمقصود هنا إنما هو في ذكر محبة العباد لإلههم.

وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان، ولم يكن بين واحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاعٌ في ذلك، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تُحَرَّك به من أنواع العبادات الشرعية كالعرفان الإيماني، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] إلى آخر السورة.

ثم إنه لما طال الأمد صار في طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة.

وصار في بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من سماع المحدث كالتغبير، وسماع المُكاء والتَّصْدِية، فيسمعون من الأقوال والأشعار مافيه تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب مافيه من الحب، بحيث يصلح لمحب الأوثان والصلبان والإخوان والأوطان والمُردان والنِّسوان، كما يصلح لمحب الرحمن، ولكن كان الذين يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخُلان، وربما اشترطوا له الشيخ الذي يحرس من الشيطان، ثم توسع في ذلك غيرهم حتى خرجوا فيه إلى أنواع من المعاصي، بل إلى أنواع من الأشعار التي فيها الكفر والإلحاد، مما هو من أعظم أنواع الفساد، ويُنتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه، كما تُنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتُهم بحسبها.

والذي عليه محققو المشايخ أنه كما قال الجنيد رحمه الله: مَن تكلَّف السماع فُتِنَ به، ومن صادفه السماع استراح به. ومعنى ذلك أنه لا يُشرع الاجتماع لهذا السماع المحدَث، ولا يؤمر به، ولا يُتخذ ديناً وقُرْبة، فإن القُرَب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فكما أنه لا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل محبتهم لله موجبةً لمتابعة رسوله، وجعل متابعة رسوله موجبةً لمحبة الله لهم.

قال أبي بن كعب رضي الله عنه: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكرَ اللهَ فاقشعرّ جلدُه من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياه، كما يتحاتُّ الورقُ اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسّه النار أبداً، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون

أعمالكم إن كانت اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

فلو كان هذا مما يؤمر به ويُستحب، وتَصلحُ به القلوب للمعبود المحبوب لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه، ومن المعلوم أنه لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي ﷺ: «خَيرُ القرون قرني الذي بُعثتُ فيه، ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يلونهم»[1] لا في الحجاز ولا في الشام، ولا في اليمن، ولا في العراق، ولا في مصر، ولا في خراسان أحدٌ من أهل الخير والدين يجتمع على السماع المبتَدَع لصلاح القلوب، ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره، حتى عدّه الشافعي من إحداث الزنادقة حين قال: خَلَّفْتُ ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يُسمونه التَّغْبير، يَصُدّون به الناس عن القرآن.

وأما مالم يقصده الإنسان من الاستماع فلا يترتب عليه لانهي ولاذم باتفاق الأئمة؛ ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع، فالمستمع للقرآن يثاب عليه، والسامع له من غير قصد وإرادة لايثاب على ذلك، إذ الأعمال بالنيات.

وكذلك مايُنهى عن استماعه من الملاهي لو سمعه السامع بدون قصده لم يضرَّه ذلك، فلو سمع السامع بيتاً يناسب بعضَ حاله، فحرّك ساكنه المحمود، وأزعج قاطنَه المحبوب، أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن ذلك مما يُنهى عنه، وكان المحمود الحسن حركةَ قلبه التي يُحبها الله ورسوله إلى محبته التي تتضمن فعلَ مايحبه الله، وترْكَ مايكرهه الله، كالذي اجتاز ببيت فسمع قائلاً يقول:

كُلَّ يومٍ تَتَلَوَّنْ ... غيرُ هذا بك أجملْ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إثم من لا يفي بالنذر (٦٦٩٥) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥) والترمذي، كتاب المناقب، باب فضل من رأى النبي واصحابه (٣٨٥٩)، وأحمد (٣٥٨٣) كلهم بلفظ (خير الناس قرني).

فأخذ منه إشارة تُناسب حاله، فإن الإشارات هي من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال.

ومسألةُ (**السماع**) كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن المقاصد المطلوبة للمريدين تُحَصَّلُ بالسماع الإيماني القرآني النبوي الديني الشرعي الذي هو سماعُ النبيين، وسماع العالمين، وسماع العارفين، وسماع المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٦-٧]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:

٢٢-٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]. ومثل هذا كثير في القرآن.

وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشايخنا وأئمتها كالصحابة والتابعين ومَن بعدَهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي وأمثال هؤلاء.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: يا أبا موسى، ذَكِّرْنا ربَّنا، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن، والباقي يستمعون. وقد ثبت في الصحيح: «أن النبي ﷺ مرَّ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فجعل يستمع لقراءته وقال: لقد أوتي هذا مِزماراً من مزامير آل داود»[(١)].

وقال: «مررتُ بك البارحةَ وأنت تقرأ فجعلتُ أستمع لقراءتك فقال: لو علمتُ أنك تسمع لَحَبَّرْتُه لك تحبيراً»[(٢)]. أي لحسَّنته لك تحسيناً. وقال ﷺ: «زَيِّنوا القرآن بأصواتكم»[(٣)].

وقال: «لله أشدُ أَذَناً إلى الرجل الحسَن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنَة إلى قينته»[(٤)] - أذناً أي: استماعاً -. كقوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٥]

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن (٥٠٤٨) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والنسائي كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت (١٠١٩) وأحمد (٢٢٥٢٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٢٩ (٥٩٦٦)، البيهقي في الكبرى ٣/ ١٢ (٤٤٨٤)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٨ .

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب التوحيد، باب قول النبي «الماهر بالقرآن مع الكرام البررة»، والنسائي، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت (١٠١٥)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (١٤٦٨)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب حسن الصوت بالقرآن، (١٣٤٢) وأحمد (١٨٠٢٤).

(٤) أخرجه ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة، باب حسن الصوت بالقرآن (١٣٤٠) وأحمد (٢٧٧٢٦).

أي: استمعت. وقالﷺ: «ما أذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حسنِ الصوت يَتغنّى بالقرآن يَجْهَر به»[١]. وقال: «ليس منا مَن لم يَتَغَنَّ بالقرآن»[٢].

ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة مالا يَتسعُ خطاب، ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهُّمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان.

ومما ينبغي التفطنُ له أن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. قال طائفة من السلف: ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية. فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن اللهُ بها أهلَ دعوى محبة الله، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه، ولهذا يروى عن ذي النون المصري إنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده فقال: اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدّعيَها.

وقال بعضهم: من عَبَدَ اللّه بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبدَ الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب و الخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يَزَعْها وازعُ الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

ويوجد في مُدّعي المحبة من مخالفة الشريعة مالا يوجد في أهل الخشية، ولهذا قرن الخشيةَ بها في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع الكرام البررة» (٧٥٤٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢)، والنسائي، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت (١٠١٧)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (١٤٧٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ (٧٥٢٧)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، (١٤٦٩) وأحمد (١٤٧٩).

خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣٢-٣٤].

وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبةَ من يُكثر دعوى المحبة والخوضَ فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وماوقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صِنفين:

صنف يُقرُّ بحقها وباطلها.

وصنف يُنكر حقَّها وباطلها كما عليه طوائفُ من أهل الكلام والفقه.

والصواب إنما هو الإقرارُ بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة، والإنكارُ لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فاتباعُ سنة رسوله ﷺ وشريعته باطناً وظاهراً هي موجبُ محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، هو حقيقتها، كما في الحديث: «أوثَقُ عُرى الإيمان: الحبُّ في الله، والبُغضُ في الله»[١]، وفي الحديث: «مَنْ أَحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنعَ لله، فقد استكمل الإيمان»[٢].

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكملُ لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيره، ولا غضب لله، وهذا خلافُ ما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا في الحديث

(١) أخرج نحوه أحمد (١٨٠٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٦٩ (٩٥١٠) والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٢ (٣٧٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب منه (٢٥٢١)، وأبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١)، وأحمد (١٥١٩٠).

المأثور: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليومَ أُظلهم في ظلي يومَ لا ظِلَّ إلا ظلي»[١].

فقولهُ: أين المتحابون بجلال الله تنبيهٌ على مافي قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحابِّ فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدوده، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث: «حَقَّتْ محبتي للمتحابّين فيّ، وحقَّتْ محبتي للمتجالسين فيّ، وحقت محبتي للمُتَزاوِرين فيّ، وحقت محبتي للمتباذِلين فيّ»[٢] والأحاديث في المتحابين في الله كثيرة.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «سبعةٌ يُظِلُّهُم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبهُ معلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا وتفرَّقا عليه، ورجلٌ تَصَدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِماله ما تنفق يمينُه، ورجلٌ ذكر اللهَ خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين»[٣].

وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ولها أصلان:

(أحدهما): وهو الذي يقال له: محبةُ العامّة لأجل إحسانه إلى عباده، وهذه المحبة على هذا الأصل لايُنكرها أحد، فإن القلوب مجبولةٌ على حب من أحسن إليها، وبُغْضِ من أساء إليها، واللهُ سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب لله (٢٥٦٦)، وأحمد (٧١٩٠)، ومالك كتاب الجامع، باب المتحابين في الله (١٧٧٦)، والدارمي، كتاب الرقاق، باب المتحابين في الله (٢٧٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٤٩٧)، ومالك، كتاب الجامع، باب المتحابين في الله (١٧٧٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٦٠) ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١)، والترمذي، كتاب الزهد، باب الحب في الله (٢٣٩١) والنسائي، كتاب آداب القضاة، باب الإمام العادل (٥٣٨٠)، وأحمد (٩٣٧٣).

بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة؛ إذ هو ميسِّر الوسائط، ومسبِّبُ الأسباب، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه، فما أحبّ العبدُ في الحقيقة إلا نفسَه، وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه. وهذا ليس بمذموم بل محمود.

وهذه المحبة هي المُشارُ إليها بقوله ﷺ: «أحبوا الله لما يَغْذوكم به من نِعَمِه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهلي بحبي»[1]. والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه، وهذا كما قالوا: إن الحمد لله على نوعين:

«حمد» هو شكر، وذلك لايكون إلا على نعمته.

و«حمد» هو مدح وثناء عليه ومحبة له، وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه، فكذلك الحب. فإن الأصل الثاني فيه هو محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يُحَبَّ لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يُعرف الله بها مما دلّت عليه أسماؤه وصفاته إلاّ وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاتِه، إذ كلُّ نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال، ويستحق أن يُحْمَد على السراء والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة.

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم مالايطيقون، وهم السابقون كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ بجبل يقال له: جُمْدَانُ فقال: سيروا هذا جُمْدان، سبق المُفرِّدون، قالوا: يا رسول الله، من المُفَرِّدون؟ قال:

---

(١) تقدم تخريجه

الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[١] وفي رواية أخرى: «قال: المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالَهم فيأتون يوم القيامة خِفافاً»[٢].

وفي حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال موسى: يارب أيُّ عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولاينساني، قال: أيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يطلب علمَ الناس إلى علمه ليجدَ كلمةً تدّله على هدى، أو تَرُدُّه عن ردى، قال: أيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم على نفسه كما يحكم على غيره، ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه». فذكر في هذا الحديث الحب والعلم والعدل وذلك جِماعُ الخير.

ومما ينبغي التَفَطُّنُ له أنه لا يجوز أن يُظن في محبة الله تعالى ما يُظن في محبة غيره مما هو من جنس التجني، والهجر، والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك مما يَغْلَطُ فيه طوائف من الناس، حتى يتمثلون في حبه بجنس ما يتمثلون به في حب من يصُد ويقطع بغير ذنب، أو يُبعد من يتقرب إليه، وإن غَلِط في ذلك من غلط من المصنفين في رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم إقامةَ الحجة على الله، بل لله الحجةُ البالغة.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: مَن ذكرني في نفسه ذكرتهُ في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرتهُ في ملأ خيرٍ منه، ومن تَقَرَّب إلي شِبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلَة»[٣].

وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: «أهلُ ذكري أهلُ مجالستي، وأهل شُكري أهلُ زيارتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أُوَيِسُهم من

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٦)، وأحمد (٩٠٧٧).

(٢) وأخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية (٣٥٩٦) وأحمد (٨٠٩١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله (٢٦٧٥)، والترمذي كتاب الدعوات، باب حسن الظن بالله تعالى (٣٦٠٣) وأحمد (٧٣٧٤).

رحمتي، وإن تابوا فأنا حبيبُهم -لأن الله يحب التوابين- وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب حتى أُطهِّرَهم من المعائب».

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]. قالوا: الظلم أن يَحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات نفسه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ياعبادي! إني حرّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرّماً فلا تَظالموا، يا عبادي! كلكم ضالٌّ إلا من هديتُه؛ فاستهدوني أَهْدِكم، ياعبادي! كلكم جائع إلاَّ من أطعمتُه، فاستَطْعِموني أُطعمْكم. يا عبادي! كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أَكْسُكم، يا عبادي إنكم تُذنبون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفرْ لكم، ياعبادي إنكم لن تَبْلُغوا ضُرّي فتَضُروني ولن تبلغوا نفَعي فتنفعوني، ياعبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلبِ رجل واحدٍ منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً، ياعبادي! لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجل واحد منكم ما نَقَصَ ذلك من مُلكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم اجتمعوا في صعيد واحدٍ فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألتَه ما نقص ذلك من ملكي إلاَّ كما يَنْقُصُ المِخْيَط إذا غُمس في البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فلْيَحْمَد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نفسَه»[١].

ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيِّد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من

(١) تقدم تخريجه.

شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلاً أنت. من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات في يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة»[(١)].

فالعبد دائماً بين نعمةٍ من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكلٌّ من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً، فإنه لايزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولايزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار.

ولهذا كان سيّدُ وَلَدِ آدم وإمام المتقين محمد ﷺ يستغفرُ في جميع الأحوال. وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني لأستغفرُ الله وأتوب إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرة»[(٢)]. وفي صحيح مسلم أنه قال: «إنه لَيُغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئةَ مرة»[(٣)] وقال عبد الله بن عمر: «كنا نَعُدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: رب اغفر لي وتُب عليَّ إنك أنت التواب الغفور مائة مرة»[(٤)].

ولهذا شُرع الاستغفار في خواتيم الأعمال. قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. وقال بعضهم: أحيَوا الليلَ بالصلاة فلما كان وقت السحر أُمروا بالاستغفار، وفي الصحيح: «أن النبي ﷺ كان إذا انصرف

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب منه (٣٣٩٣)، والنسائي كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع (٥٥٢٢)، وأحمد (١٦٦٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي في اليوم والليلة، (٦٣٠٧) وأحمد (٧٧٣٤)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب الاستغفار (٣٨١٦).

(٣) أخرجه مسلم، ، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار (٢٧٠٢) والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة محمد (٣٢٥٩)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (١٥١٥)، وأحمد (١٧٨٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، (٣٤٣٤)، وأحمد (٤٧١٢)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (١٥١٦).

من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام»[1].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨ -١٩٩].

وقد أمر الله نبيه بعد أن بلّغ الرسالة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، وأتى بما أمر الله به مما لم يَصِلْ إليه غيره فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣].

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ١-٣]. وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦]. وقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

ولهذا جاء في الحديث: «يقول الشيطان: أهلكتُ الناسَ بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار»[2]. وقد قال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وكان النبي ﷺ: «إذا ركب

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة (٥٩١)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سلم من الصلاة (٣٠٠)، والنسائي كتاب السهو، باب الاستغفار بعد التسليم (١٣٣٧)، وأحمد (٢١٨٦٠).

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ٣/ ١٥ (٤٠١٩)، وأبو يعلى في مسنده ١/ ١٢٣ (١٣٦).

دابته يحمدَ الله، ثم يكبّر ثلاثاً ويقول: لا إله إلا أنت سبحانك ظلمتُ نفسي فاغفر لي»[١].

وكفارة المجلس التي كان يَخْتِم بها المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت وأستغفرك وأتوب إليك»[٢].

تمت التحفة بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا ركب الناقة (٣٤٤٦)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب ما يقول إذا ركب (٢٦٠٢)، وأحمد (٧٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس (٣٤٣٣)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في كفارة المجلس (٤٨٥٩)، وأحمد (١٠٠٤٣)، والدارمي، كتاب الاستئذان، باب في كفارة المجلس (٢٦٥٨).

الفهارس



فهرس الآيات القرآنية

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾	٢٨	٦٩
﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾	٣٠	٢٢

سورة إبراهيم

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾	٥	٤٤

سورة الحجر

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾	٤٢	٤٦

سورة النحل

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾	٣٦	٥٠
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾	٩٠	٢٧
﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾	٩٩-١٠٠	٤٩
﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	١١٨	٨١
﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾	١٢٧	٢١

سورة الإسراء

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا...﴾	١٦	٢٧
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾	٢٣	٢٨
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾	٥٧	٦٠
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾	١٠٧-١٠٩	٧٤

سورة الكهف

﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾	١٠١	٣٤

سورة مريم

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الجاثية

سورة محمد

سورة الحجرات

سورة ق

سورة الذاريات

سورة النجم

سورة الحديد

سورة الحشر

فهرس الأحاديث

فهرس الموضوعات

AT-TUḤFAH AL-ʿIRĀQIYAH
FĪ AʿMĀL AL-QULŪB

(A book about Islamic Values and Ethics)

by

Taqiyuddin Ibn Taymiyah

Edited by

ʿAbdul-Jalīl ʿAbdul-Salām

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH

Beirut-Lebanon